شبلي ملّاط عن "الربيع الفائت"

وجدت في اوراقي بداية نقاش لسنوات خمس خلت في كتاب أحمد بيضون، "الربيع الفائت"، في ندوة نظمها الصديق خالد زياده. كان الحديث مقتضباً لكن الامل في النقاش اوسع من الوقت المتاح.
للأسف لم أعد الى المشروع الاول، ولم أنشر الحديث. بمناسبة عودة رياح الثورة قد يكون مفيداً لقاء في حلقة أخرى حول المفاهيم والاسئلة الهامة في الكتاب. انشالله بتتنظم قريباً. للمهتم اشيد بأهمية الكتاب لئلا يفوتنا الربيع مرة أخرى.
هذا هو النص، والصور عن الغلاف والمناسبة في بيروت

أحمد بيضون ونصرة الدستور في ربيعٍ فاتَنا؟
شبلي ملاط

مهمٌّ جداً هذا الكتاب موضوعياً وعاطفياً.
أما العاطفي ففي شعر بيضون الذي يفتتح به الكتاب، يفاجئك بمثله من حين الى حين، حتى تصطدم فجأة بقصيدة تخالها له، وهي من شعر أبي العلاء المعري في بعض أجمل الأبيات عرفها الأدب العربي. واختيار الكاتب لأبيات يشترك بها مع رهين المحبسين الضرير في ما أسميه بفلسفة "الانسانية" humanisme ، هي "انفراد" أي الايمان بالفرد غرضاً للدنيا، والانفراد عبارة لأبي العلاء ،
فانفردْ ما استطعتَ فالقائلُ الصا دقُ يضحي ثِقلاً على الجُلساءِ (ص131)
وفيلسوف المعرة اختاره الغلاة من قتلة الثورة السورية رمزاً قطعوا رأسه في مسقط رأسه في الشمال السوري. (ص143)
والعاطفي والموضوعي يتلاقيان هنا بما وضع أحمد بيضون من تساؤلات صعبة كلٌّ منا تبادرت مراراً وتكراراً الى ذهنه، وبعضنا خطّ كما أحمد بيضون مقالاتٍ وكتباً لمرافقة هذا الحدث الفريد في تاريخ الشرق حتماً، وفي تاريخ الإنسانية افتراضاً، ما حوّل كاتبُنا اسمه من الربيع العربي الى الربيع الفائت. وكالعادة تفوّق أحمد بيضون بفكره وأسلوبه وأبدع.
يتشكّل "الربيع الفائت" من مقدمة وسبعة محاور وخاتمة، في مقالات متفاوتة الحجم كتبها بيضون على امتداد السنوات الخمس التي تفصل الكتاب عن بداية الربيع العربي. فمنها ما يتناول «المطالع والأصول»، وهو فصل مطوّل يشمل «لائحة غير حصريّة بمسائل لا بد لما يمكن تسميته ثورة ديمقراطية عربية من أن يواجهها». (ص. 81) صفة الثورة، وهي الصفة الصحيحة في نجاحها الأولي بإسقاط أربعة قادة عرب من علاهم الإستبدادي، تقابلها لا محال «ثورة مضادة»، يشير اليها الكاتب في الفصول التالية.
هل هو ربيع، أو ثورة، أو ثورة مضادة، أو، وهذا الأهمّ، سحابة احتجاج أشعلت الآمال وما لبثت أن أطفأتها؟ هذه كلها أسئلة أساسية في «اللائحة غير الحصرية» من حدثٍ جللٍ في التاريخ المعاصر رسا عنوانه فترة «ربيعاً عربياً»، فصار عند أحمد بيضون فائتاً بعد ترديداته

الكبيرة، حتى في الجمهورية التونسية التي درجنا على نعتها «بالاستثناء الناجح»؛ علماً بأن الطاقم السابق في تونس ما لبث أن استرجع روحه وأزلامه في وزارات مختلفة.
وفي الكتاب كشكول واسع من التحاليل العميقة لظواهر مختلفة من الثورة المضادة، وأهمها التركيبة الطائفية المقوّضة لما يقدّمه الكاتب في مفهوم «التبلّر». (98و 100-104) والتبلّر، والكلمة أفصح من صنوها التبلور، تذكّر بمساهمات الباحث الفرنسي الكبير – الراحل عام 2015 – روبير فوسار، في ما وصفه بـال ethnolyse ، وهو كما في النظرة البيضونية، انصهار الملل والنحل في قالب جامع، وفي الصعوبة التي تصطدم بها لماّ تستجير كلّ ملّة أو نحلةٍ الرمضاء بالنار فتطغى الملة على الأمّة ، في أحيان كثيرة حتى التهجير، أو نحلةٌ على كوكبة من النحل. هذا هو التبلّر السلبي، وهو ما نعيشه من ثورة مضادة تكرّس التقوقع الاتني والطائفي والمذهبي والعسكري على رديفه الوطني والانساني الذي ميز الثورة في أوائلها. كيف يمكن إنجاح عمليّة التبلّر الايجابي على التبلّر السلبي المتحجّج "بالخوف على سوريا"، أو على خلفية تقصير العلم والعلوم في المنطقة، أو في "البلايا المحيطة" و"الحلول بما هي مشكلات"،وجميعها نقاط هامة في أسباب تردي الثورة. والتبلّر الايجابي ، في تلاقٍ فعّال بين فوسار وبيضون، هو صيرورة الملل قالباً يطغى فيه العيش على الموت، و يربو التساوي على التسلط، و يتعالى الإشتراك على التهميش في نظرة مشتركة يغدو فيها التبلّر تلاقياً وانصهاراً وقالباً ، ethnolyse. هذه ضالة الثورة الفائتة على من أحبّها والتحق بها وانتصر لها.
يتألّق الكاتب بوتيرة مختلفة عن سواها في علمه بالمعضلة الطائفية على امتداد سيرته المعطاء الطويلة. فنجد في المحاور التي تلت الجزء الأول من الكتاب، بشكل خاص في عمقه التحليلي، نتيجةً نظريّة مهمّة جداً، وهي معالجة باسهاب، أختصرها في جملة من باب المعالجات، مفادُها "أن صفة الحتمية [في الدستورية الطائفية، وهذه الاضافة مني وليست لبيضون] لا تبطل بالضرورة صفة الكارثية".
أودّ مخاطبة أحمد بيضون في الربيع الفائت بما يمكن أن أقدمه له من نقد للكتاب دستورياً وحقوقياً، لما أكنّ للموضوع الدستوري الحقوقي من اهتمام. عالم بيضون ، مثل عالم الثورة، أوسع بكثير من العالم الدستوري، فنراه في الكتاب مهتماً بالمعرفة واستحالتها في النظم العربية الدكتاتورية، أو في نظرة ثاقبة للتدخل الاجنبي في الثورة. والقارئ المتأني يجد في الكتاب، مثل التبلّر، كنوزاً من المفاهيم المبدعة على غرار "غصب الفوارق"، و"هندسة العدو الملائم"، و"المحنة الكبرى"، و"عمل التجريد السياسي"، الذي يقترب به أحمد بيضون من الفيلسوف السياسي الاوسع شهرة في الخمسين سنة الفائتة، جون رولز Rawls و قناع الجهل (veil of ignorance)، وأترك للقارئ لذة تناول بيضون له في مفاهيمه المبدعة (بكسر العين وفتحها على السواء)، منها مثلاً : "أما مبدأ المعالجة الذي نراه جديراً بالتأمّل مع الإقرار ببعده الشاسع عن متناولنا، فهو أن يقابل الابتعاد عن المحاصّة الطائفيّة إنشاء مؤسساتٍ سياسية وحقوقية توفّر ضمانات تقمع التمييز على أساس الطائفة على غرار قمعها التمييز، في الصيغة المعاصرة لحقوق الإنسان، على أساس العنصر أو الجنس أو اللغة... الخ." (ص. 112)
وفي ما تبقى من حديثي اليوم، اخترت مخاطبة هذا الكتاب بنمط نقدي يهدف الى توسيع الحلقة قدر الإمكان، فاذا قسوت في النقض او بالغت فيه ارجو الا أؤاخذ بضغط العبارة لأن نيتها

صافية بصفاء اعجابي به.
في الدستور
في الشعر
في المفاهيم
في اللاحصرية
في اللاعنف
في التاريخ
في الحق والمساءلة
في النساء